مجتمع الموصل في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد من خلال شعر السريّ الرفّاء

أ.م.د. عبدالجبار حامد(*)

المقدمة

لا يخفى أن الأدب العربي يعد مصدراً مهماً من مصادر التاريخ الإسلامي، لاسيما الشعر ودواوينه، ولما كان الشعر يعد ديوان العرب، به يأخذون واليه يرجعون [(1)] أي انه كان سجلهم الذي يسجلون فيه مفاخرهم وحياتهم بمجمل تفاصيلها، لذلك مما لا شك فيه أن الباحثين في التاريخ الإسلامي جعلوا من دواوين الشعراء مصدراً مهما لهم.

وكذلك عند دراسة تواريخ المدن، لابد من الرجوع إلى شعراء تلك المدن لان الشاعر يحاول أن يعطي صورة صادقة عن مدينته ويظهر محاسنها وتطورها الاجتماعي والاقتصادي وخططها المعمارية وولاتها، كما هو شأن مؤرخ التاريخ المحلي (تاريخ المدن).

لذلك توجب على كل مؤرخ، يكتب عن تاريخ مدينة الموصل في مختلف مراحلها أن يرجع إلى دواوين شعرائها، لكي ينهل من تلك الدواوين تاريخاً صادقاً صافياً مهماً، فيه الشيء الكثير عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

(*) قسم التاريخ – كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، (القاهرة: 1974)، 1/ 24.

وتأسيساً على ما ورد آنفاً فقد تمت دراسة مجتمع الموصل في حقبة من حقبه الزمنية، وهي القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد من خلال ديوان السريّ الرفـّاء، الذي كان شاعرها المشهور.

وقد حاول الباحث من خلال ذلك الوقوف على جملة أمور تم استنباطها من شعر السريّ الرفـّاء، منها دراسة طبيعة الموصل وجمالها وانعكاس ذلك على المجتمع، ثم التعرف على القبائل العربية التي سكنت الموصل والوارد ذكرها في شعره، والتطرق إلى المهن التي ورد ذكرها في الديوان والتي كانت سائدة في الموصل آنذاك، كذلك البحث في المأكولات والمشروبات ووصف مظاهر التطور الاجتماعي بكل تفاصيله، ثم الإشارة إلى ما يتعلق بالحروب والجيش والسلاح، وغير ذلك مما تناوله السريّ الرفـّاء في شعره.
ومن الله التوفيق.

السريّ الرفـّاء

أبو الحسن السريّ بن احمد بن السريّ الكندي الرفـّاء الموصلي، وهو من شعراء القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، وسمي بالرفـّاء لأنه كان يرفو الثياب ويطرزها عندما كان صبياً بالموصل، وهو من قبيلة كندة العربية.

لم تعرف سنة ولادته في الموصل، إلا أن محقق ديوانه افترض انه ولد في السنوات العشر الأولى من القرن الرابع للهجرة، مستعيناً ببعض القرائن التي استنتج من خلالها هذا التاريخ[2].

(2) ديوان السريّ الرفـّاء، تحقيق ودراسة حبيب حسين الحسني، دار الرشيد للنشر، (بغداد: 1981)، 22/1.

وقد نشأ بأحضان الكُتّاب ودَرَسَ القرآن الكريم وتعلم النحو واللغة والأدب، وحضر مجالس الأدباء والشعراء، ثم استطاع أن ينظم الشعر.

وبعد أن مارس مهنته في سوق الرفـّائين، ضاق به الحال فأخذ يبحث عن عمل آخر، فاشتغل بمهنة صيد الأسماك، إلا أن رزقه ظل شحيحاً فآثر أن يتصل بالملوك والأمراء ليمدحهم ويتكسب من عطاياهم. فاتصل بالحمدانيين بالموصل ومدحهم فأغدقوا عليه الأموال، ثم انتقل إلى حلب سنة (338هـ/ 949م) – بعد أن ناصبه العداء الشاعران الإخوان الخالديان في الموصل -، وهما أبي بكر محمد المتوفي سنة (380هـ/ 990م) وأبي عثمان سعيد المتوفي سنة (390هـ/ 999م)، فمدح فيها سيف الدولة الحمداني، ألا أن الخالديين قد تبعاه وبدأ العداء بينهم، مما حدا به أن ينتقل إلى بغداد سنة (349هـ/ 960م) ومدح كبار رجالها فحصل على رزق وفير، وتحسنت حاله لاسيما بعد اتصاله بأبي اسحق بن هلال الصابي الكاتب، إلا أن قوة علاقات الخالديين مع الأخير أدت إلى إجراء مكاتبات بينهم، مما حدا بالخالديين الذهاب إلى بغداد، وبذلك افسدا عليه حياته لسوء العلاقة بينهم، فأصبح معدماً فقيراً، لذلك انتقل إلى حرفة الوراقة والنسخ بأجر قليل، وظل كذلك حتى وفاته سنة (362هـ/972م)[3] .

(3) ينظر ترجمته في: الثعالبي، يتيمة الدهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط 2، المكتبة التجارية الكبرى، (القاهرة: 1956)، 118/2 وما بعدها. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، 194/9. الحموي، معجم الأدباء، دار المستشرق، بيروت، 184/11. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، (بيروت: 1968)، 360/2.

طبيعة الموصل وجمالها في شعر السريّ الرفـّاء وانعكاس ذلك على المجتمع

من المعروف أن المناخ يلعب دوراً مهماً في تحديد طبيعة المدينة وجمالها وانعكاس ذلك على أفراد المجتمع وصحته، والموصل واحدة من المدن التي تتمتع بمناخ جيد لاسيما في فصل الربيع مما جعلها مركز استقطاب للناس من مختلف الجنسيات والثقافات، لاسيما العلماء منهم، فغدت واحة تجمع كبار العلماء والأدباء فضلا عن التجار وأصحاب الصنائع، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ياقوت الحموي: "أن الغريب إذا أقام في بلد الموصل سنة تبين في بدنه فضل قوة...." ويعلل ذلك بسبب عذوبة مائها ونقاء هوائها[4]، مما كان له تأثير ايجابي على صحة المجتمع لأنه كما هو معروف (العقل السليم في الجسم السليم). وقد أبدع السريّ الرفـّاء عندما نظم العديد من القصائد التي حاول من خلالها أن يظهر طبيعة الموصل وجماليتها واثر المناخ في ذلك، وقد تنوع ذلك الوصف، فمنه ما كان وصفاً عاماً للموصل وجمالها، ووصف جود أهلها وكرمهم كقوله:

سقى ربا الموصل الزهراء من بلد   جود من الغيث يحكي جود أهليها [5]

كما أكد بأن الإنسان سرعان ما يحن إلى الموصل لوجود العيش الرغيد فيها والاستقرار النفسي والاقتصادي نتيجة مناخها الجيد فقال:

ارض يحنّ إليها من يفارقها   ويحمد العيش فيها من يدانيها [6]

---

(4) الحموي، ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، دار الفكر، (بيروت: د/ ت)، 5/ 224.

(5) ديوان السريّ الرفـّاء، 2/ 756.

(6) نفسه، 2/ 757.

ووصف فيها كثرة الأمطار وانها دائمة الابتسامة ضاحكة بسبب لطافة جوّها فقال:

ميثاء طيبة الأنفاس ضاحكة تكاد تهتز عُجْباً منْ نواحيها (7)

وكان معجباً بنسيمها الذي لا ينفك عنها فضلاً عن إعجابه بمياهها الدائمة الجريان بقوله:

إذا رَكَدَ الهواء عَلَتْ نسيماً وإن فُقد الغَمامُ طَفَتْ مياهاً

وطيبة النسيم عَدَتْ علَيْنا جنائبُها وعادَتْنا صباها (8)

وكثيراً ما كان يفصّل في الوصف لمفردات الموصل بحيث أنه كان في نهاية المطاف يرسم لنا صورة واضحة عن كل ما له علاقة بجمالها وال ذي اثر إيجاباً على أهل الموصل، ومن ورد إليها وسكنها، فمثلاً بدأ بوصف الحدائق بشكل عام مبيناً ما تحويه تلك الحدائق من الأشجار والأزهار والأطيار مما يدخل الفرح والسرور في نفس أهل الموصل فقال في ذلك وهو يمدح أحد أعيانها أبي الحسن باروخ بن عبدالله ويصف بستانه ذاكراً فيها من الجمال والبهاء وواصفاً المياه المحيطة بتلك الحدائق فقال:

وروض إذا ما راضه الغيث أنشأت حدائقه وشياً كوشي السبائب

---

(7) نفسه، 2/ 757.

(8) نفسه، 2/ 764، 766.

وقال:

ترى الماء شتى السبل ينساب حولها   كما ذُعِرَ الحيات من كلّ جانب [9]

وكان عندما يدعو صديقاً له إلى مجلس الأدب والشعر يمنيه بالدار التي فيها ذلك المجلس، وهي داره الغنّاء ذات الحدائق الجميلة فيقول:

لنا روضة في الدار ضِيْغَ لِزهرِها   قلائِد من حَلْي النّدى وشُنوفُ [10]

ويفعل الشيء نفسه عندما يدعو صديقاً آخر للخروج إلى الدير الأعلى والاستمتاع بمناخ الموصل وحدائقها لاسيما في أيام الربيع الزاهر فقال:

وروضةُ المُدَبَّجُ المُفوَّفُ   ترْبٌ صحيحُ وهواء مُدْنَفُ

للعينِ فيه أيّ وجهٍ تَصْرِفُ   بساط منثور نداه يَنْطُفُ [11]

وبعد أن وصف الحدائق والبساتين بعشرات القصائد نلحظ انه في كل مرة يتطرق إلى وصف الأزهار بكل أشكالها وألوانها، مما يشير إلى اهتمامه بمفردات الحديقة، التي تسهم بشكل أو آخر بجمال الموصل وإضفاء السرور والبهجة على أهلها، فمثلاً نراه يتغنى بوصف الأقحوان والنرجس من خلال وصفو للربيع فقال:

---

(9) نفسه، 1/ 325، 326.

(10) نفسه، 2/ 414.

(11) نفسه، 2/ 415.

ولاذ َ نسيم الجوِّ مِنْ طول سيره حسيراً بأطراف الغصون مُطلَّحاً

فباشر ورد الأقحوان مُشرِّفاً وصادفَ وردَ الباقلاء مُجَنِّحاً [12]

وقال في الموضوع نفسه:

وروضة باتَ طَلُّ الغَيْثِ ينْسِجُها حتى إذا نُسِجَتْ أضحى يُدَبِّجُها

إذا تَنفَّسَ فيه ريح نرجسها ناغى جَنيَّ خُزّامها بَنفسَجُها [13]

وهو لا ينسَ في وصفه أنواع الأزاهير الأخرى كالريحان والآس والياسمين والسوسن واللينوفر، وب ذلك فانه كان معجباً بكل أنواع الورود كإعجاب أهل الموصل بها، فعلى سبيل المثال لا الحصر نراه يرسم صورة يبين فيها العلاقة بين الطبيعة ممثلة بالبرق وبين ألآس ذي الرائحة العطرة في البساتين فيقول:

وباتَ زنادُ البرقِ يقدحُ نارَه على ألآس حتى اهتزَّ فيه وقدّحا [14]

وفي الموضوع نفسه يقول:

وبساط رَيْحانٍ كماء زَبَرْجَدٍ عَبَثتْ بصفحَتِه الجَنوبُ فا ُرعِدا [15]

(12) نفسه، 2/ 37.

(13)2/ 788.

(14) نفسه،2/ 37.

(15) نفسه، 2/129.

وقال:

قضيب من الريحان شاكل لَوْنـُهُ إذا ما بَدا للعين ِ لونَ الزَبَرْجَدِ [16]

وكان معجباً باللينوفر بحيث انه يعدّه من النفائس التي يتهادى بها بين الأحبة وهو يعكس العلاقات الاجتماعية الشفافة بين الناس فقال:

حبيبُ حَباكَ بـِلِيْنـَوفرٍ فأكر Qمْ به وبإهدائه [17]

ثم ينتقل السريّ الرفـّاء من وصفه للحدائق وأزاهيرها إلى وصف المياه ومصادرها التي هي الأخرى تلعب دوراً في طبيعة الموصل الجمالية، وتسهم في إ ذكاء العقول والنفوس، وقد أدرك شاعرنا ه ذه المسألة، الأمر ال ذي حدا به ان يكثر من وصف البرك والجداول، ولاشك إن ه ذا الإحساس هو نفسه إحساس أهل الموصل، ويؤيد ذلك تلك القصائد الكثيرة التي نظمت له ذا الغرض ومنها البيت التالي:

بركٌ تحلـَّت بالكواكب أرضـُها فأرتـْكَ وجْهَ الأرض Q وهو سماءُ [18]

وعند حديثه عن الحدائق والبساتين والرياض يحاول ان يصف سواقي الماء التي تتخلل تلك الأماكن مشبهاً إياها بسلاسل الفضة فقال:

(16) نفسه، 2/ 798.

(17) نفسه، 297/1.

(18) نفسه، 265/1.

كأن سواقيه سلاسِلُ فضةٍ إذا اطـّردَتْ بين الصّبا والجنائِبِ [19]

ويبدو من خلال اهتمامه وعشقه للمياه فانه قد صنع في داره جدولاً سريع الجريان، وكانت غرفته مشرفة على ذلك الجدول، ولذلك فانه كان يفخر بها ويدعو أصدقاءه إليها للاستمتاع بذلك المنظر الجميل فيقول:

لنا غرفةٌ حَسُنَتْ مَنْظراً وطابتْ لساكنها مَخبَرا

وينساب قدّامَها جدولٌ كما ذُعِرَ الأيْمُ أو نُفـّرا [20]

وأخيراً فان الدواليب والنواعير هي الأخرى تضيف إلى جمال الموصل جمالاً آخر مما ترك أثراً في نفس السريّ الرفـّاء فأبى إلا أن يعطيها من شعره أبياتاً فيها من الحسن والجمال والبديع الشيء الكثير لكونها أماكن للاستجمام في جميع الأوقات، فنراه تارة يصفها كأنها الفلك الدوّار وحوله النجوم المتلألئة مشيراً إلى الأواني التي ترفع الماء من باطن الأرض إلى سطحها فيقول:

فلكٌ يدورُ بأنجم جُعِلَتْ له كالعِقـْدِ فهي شوارقُ وغواربُ [21]

وتارة يصفها بالمغنيات اللائي يرددن اللحن على أنغام الموسيقى فيقول:

وتارة تحسِبُها قـَيْنـَةُ تـُردِّدُ اللـَّحنَ على زامرِ [22]

---

(19) نفسه، 1/ 325.

(20) نفسه، 178/2. الايم: الحيّة.

(21) نفسه، 439/1.

وثالثة يصفها بالدولاب الطيّار الذي لا قطب له ولا وتد يستند عليه فيقول:

ومستدير بلا قطب يدورُ به   ولا له وَتـَدٌ في الأرض مركـُوزٌ [23]

ثم يعد الدولاب مُجدٌ في عمله ليلاً ونهاراً، يعمل ويدور دون ان يسير في الأرض فيقول في ذلك.

فباتَ يَسرْي لـَيْلـَهُ ولم يَنـَمْ   ولمْ يُجَاوِزْ سَيْرُهُ قِيْدَ قـَدَمْ [24]

وبذلك تراه يمعن في وصف الدولاب الذي كان له شأن في الموصل، فهو فضلاً عن دوره في إضفاء مسحة جمالية على الموصل فان له شأناً اقتصادياً في نقل الماء إلى المزارع والحدائق وبالتالي فهو يحقق أكثر من غرض، الجمال الذي يصنعه بسبب انسيابية الماء فيه، ثم المورد الاقتصادي الجيد، لأنه يسهم في ازدهار الزراعة وتطورها، وغرض ثالث انه يعد بمثابة آلة تريح النفس من التعب والجهد الذي يبذله الإنسان في استخراج الماء من باطن الأرض وإيصاله إلى الأراضي الزراعية، لذلك كان أثره كبيراً على تطور مجتمع الموصل.

قبائل الموصل العربية الوارد ذكرها في الديوان

إن الشعر العربي كان سجلاً للعرب تدوّن فيه أسماء قبائلهم وأنسابهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وحروبهم، وهذا ما فعله السريّ الرفـّاء عندما أرّخ لقبائل

(22) نفسه، 278/2.

(23) نفسه، 316/2.

(24) نفسه، 822/2.

الموصل العربية والتي شكلت نسبة كبيرة من مجتمع الموصل في القرن الرابع للهجرة، فقد دوّن تاريخ الموصل ومجتمعها وأحوالها من خلال وصفه لقبائلها العربية أمثال قبيلة الازد التي يمدح أعلامها وشخصياتها ويصف تاريخها المجيد في الموصل، فعندما يمدح سلامة بن فهد الازدي يصفه بأنه مفخرة في قبيلته فيقول:

زادَ الازدَ مأثُرةً فأضحى   لها في كلِّ مكرمةٍ نصيب [25]

وقال عنه:

ملِكٌ أبرَّ على الملوك بهمَّةٍ   زيدَتْ به الازْدُ الكِرامُ مناقبا [26]

ثم يحاول أن يستعرض مكارم الازد ويصور جودهم بأنه يفوق الندى فقال:

والازدَ إنـّهمُ إ   ذا حُسِبَ النـّدى   فاضـَتْ أنامِلـُهم بغير حساب [27]

ولكذلك يحاول أن يصور وضعهم الاجتماعي الجيد في الموصل وما كانوا يتمتعون به من عز وسؤدد ثم مال بهم الزمن، فقال يرثي بني فهد، وهم من قبيلة الازد:

يا بني فهد هو الدّهرُ ال   ذي   نال من عزّكمُ ما لم يَنـَلْ

أشرقتْ أيامُكـُمْ ثمَّ دَجَتْ   وسجا ظِلـُّكـُمُ ثم انتقلْ [28]

---

(25) نفسه، 354/1.

(26) نفسه، 1/ 359.

(27) نفسه، 415/1.

وقال عنهم مبيناً سماحتهم وكرمهم:

شرفاً بني فـَهْدِ بن احمدَ إنـّكـُمْ   اوفى الملوكِ سماحَةً وتكرُّما [29]

وأخيراً فهو يمعن في جودهم فيقول:

ما نابَتِ المجْدَ والعلياءَ نائِبَةٌ   إلا وجودُ بني فهدٍ يُجَلـّيها [30]

وعلى الرغم من ان السريّ الرفـّاء قد نال الحظوة عند بني فهد الازديين وكان مقرباً إليهم، وهذا واضح من خلال ما ورد من شعر في مدحه لهم، إلا أن ذلك لم يمنع من القول أن هذه القبيلة كان لها دور في التطور الاجتماعي في الموصل من خلال رعايتها للأدباء والشعراء فضلا عما اتصفت به من الجود والكرم.

ينتقل بعد ذلك إلى قبيلة أخرى من قبائل المجتمع الموصلي، ألا وهم بنو تغلب الذين يصفهم – كما وصف الازد – بالشجاعة والكرم والإباء، وبذلك أضفوا على المجتمع الموصلي في القرن الرابع للهجرة شهرة واسعة بين المجتمعات في تلك المدة فقال عنهم:

يَعُدُ من تغلبٍ صيداً غطارفةً   أضحى مُغالِبُهم في الفخْر مَغْلـُوبا

قومٌ إذا جَرَّدوا البيضَ الرقاق حَووا   جُرْدَ الصَّواهِل والبيضَ الرَّعابيبا

بادونَ للعِزِّ يبدو ضوءُ نارهُمُ   ليلاً إذا باتَ ضوءُ النار مَحْجُوبا [31]

---

(28) نفسه، 567/2.

(29) نفسه، 641/2.

(30) نفسه، 757/2.

ثم يثني على شجاعتهم ويقرنها بأيام – حروب – العرب قبل الإسلام فيقول:

فكلُّ أيامِهم يوم الكـُلاب إ   ذا   عُدَّتْ وقائعُهم أو يومُ   ذي قار [32]

كما يثني على بني حمدان – وهم من قبيلة تغلب – واصفاً شجاعتهم وكرمهم مفتخراً بأنسابهم وأمجادهم، مما يعطي لمجتمع الموصل أهمية إضافية لكونهم حكموا الموصل وسكنوها فقال:

حسب بني حمدان مَجْداً أنـَّهمْ   أبناءُ محمودِ السَّماحِ والحَسَبْ

أَسْدٌ إ ذا ما سُلِبَتْ أسْدُ الوغى   انـُفـُسها عانـَتْ نفيساتِ السَلـَبِ [33]

وقال:

شاءت بنو حمدان مجداً لم يَزَلْ   يبنى بحَدِّ أسنـّةٍ وسيوفِ [34]

كما قال عنهم:

ملوك لا يَمَلـّونَ العطايا   ولا يأبونَ في الرَّوعِ النـِّزالا [35]

---

(31) نفسه، 386/2. الصيد: جمع أصيد الذي يرفع رأسه كبراً / غطارفة: سادة.

(32) نفسه، 200/2.

(33) نفسه، 342/1.

(34) نفسه، 405/2.

(35) نفسه، 588/2.

وهكذا فانه يتحدث في ديوانه عن بعض العوائل والأسر والعشائر التي سكنت الموصل في القرن الرابع للهجرة والتي تمثل مجتمع الموصل، بين مادح ومفتخر، مما يجعلنا نرسم صورة جيدة عن تاريخ الموصل الاجتماعي في هذه المدة[36].

التطور الاجتماعي في الموصل ومظاهره

من المعروف أن الحياة الاجتماعية لأية مدينة لها مظاهرها التي من خلالها يستطيع القارئ أن يعرف تطور مجتمع تلك المدينة من عدمه، وللحديث عن الحياة الاجتماعية وتطورها في مدينة الموصل في القرن الرابع للهجرة، لابد أولاً من معرفة مظاهر التطور الاجتماعي والذي يتمثل في مجالات كثيرة يمكن الإشارة إليها من خلال شعر السريّ الرفـّاء ووصفه لها، ومن تلك المظاهر المتطورة، الحمامات.

لاشك أن الحمامات انعكاس مهم لتطور المجتمع من ناحية النظافة والصحة، ولذلك فإن الإسلام أكد على النظافة بكل أشكالها، سواء كانت نظافة الفرد أو المدينة، فجاء في الحديث النبوي الشريف: "إن الله طيب يحب الطيّب، نظيف يحب النظافة.." [37] ومن مظاهر النظافة في الإسلام، تشريع الوضوء قبل الصلاة، كذلك

(36) ينظر مثلاً: 415/1، 499، 340 و 696/2، 352.

(37) سنن الترمذي، تحقيق: احمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د/ ت)، 111/5، كتاب الأدب، حديث رقم 2799.

التأكيد على نظافة الأسواق والمحال، وكان ذلك من واجب المحتسب [38]، كما أوضح مفكرو الإسلام أهمية الحمامات في حياة الفرد وصحته، فقال الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ/ 111م): "نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء"[39].

واستناداً لما ذكر آنفاً من أهمية الحمامات في نظافة وصحة المجتمع باعتبارها المكان الرئيس للنظافة، حاول السريّ الرفـّاء أن يبين تطور تلك الحمامات في الموصل من خلال وصفة لها مما يعكس أهمية تلك الحمامات بالنسبة للإنسان ودليل على تطوره، فقد عدّ الحمامات من صنع الحكماء لأهميتها في صحة الإنسان ونشاطه الجسماني فقال:

بيتٌ بنته حُكماء الورى   فهو إلى الحِكْمةِ منسوب [40]

وقال:

مجاور النار ولكنـّه   يجاورُ الرُّوحَ به الطـّيْبُ [41]

ثم يستمر بوصف الحمام في الموصل وما تتميز به من بناء جيد، واصفاً قبتها وما فيها من بلـّور ثم يصف ماءها البارد والحار وهواؤها المعتدل فقال:

---

(38) الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره: الباز العريني، لجنة التأليف والنشر، (القاهرة: 1946)، ص 13. ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، تصحيح: روبن لوي، مطبعة دار الفنون، (كيمبردج: 1937)، ص79.

(39) إحياء علوم الدين، (مصر: 1939)، 145/1.

(40) ديوان السريّ الرفـّاء، 330/1.

(41) نفسه، 331/1.

ذو قـُبّةٍ كسماءٍ والب دورُ بها جاماتـُها في أعالي الجوِّ تنـْسَر جُ

حَرٌّ وبردٌ وماءٌ والهواءُ به مَعَّدلٌ قِسْمَةٌ ما شابها عِوَجُ (42)

ومن جملة اهتمام أهل الموصل بالحمام نلاحظ أن السريّ الرفـّاء كان يعرض على صديق له زيارة الحمام التي يعدّها بمثابة النعيم الذي فيه إعادة نشاط الجسم وتجديد للصحة فقال:

نتمشى إلى النعيم ال ذي فيـ ـه صلاح الأجسام والأرواح (43)

ومن مظاهر التطور الاجتماعي في الموصل في القرن الربع للهجرة، قصور الموصل التي كانت عامرة آنذاك، وتتميز ببنائها الفخم وعلوها الشاهق الذي جعلها مشرفة على بقية الأماكن في المدينة، وه ذا العلو حدا بالسريّ الرفـّاء أن يصورها بأنها كانت تناطح السحاب، وتلك إشارة إلى وجود عدد من الأغنياء والمرفهين في الموصل فضلاً عن تطور الفنون المعمارية فيها فقال متشوقاً إلى رؤية تلك القصور والمكان الذي ترعرع فيه من صباه، وهو مقيم بحلب:

أمَحلَّ صبوتنا دُعاءَ مُشوقٍ يرتاحُ مِنكَ الهوى المؤْمُوقُ

هل أطرقنَ العُمرَ بين عصابةٍ سلكوا إلى الل ذات كلّ طريقِ

أم هل أرى القصرَ المنيفَ مُعَمّماً برداء غيمٍ كالرداء رقيقِ (44)

---

(42) نفسه، 30/2.

(43) نفسه، 38/2

(44) نفسه، 473/2. المنيف: المكان المرتفع والمشرف على غيره. ابن منظور، لسان العرب، ط 1، دار صادر، (بيروت: د/ ت)، 9/ 342.

وبنفس المضمون يصف قصر أبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحمداني حاكم الموصل الذي أنشأه على دجلة مبيناً ارتفاعه الشاهق وما يتمتع به ذلك القصر من فن معماري وجودة في البناء فضلاً عن وصف الفوّارات والبرك التي يحويها ذلك القصر مما يضفي عليه رونقاً وبهاءً، ولم ينسَ في أثناء وصفه لذلك القصر أن يصف بساتينه وأشجاره وطيوره التي تعد ضرورة لإضفاء البهجة على ساكنيه:

أنشأته منزلاً في قلب دجلة لا … تمتاحُ جنتَّته الغُدرانَ والقُلُبا

صفا الهواءُ به والماءُ فاشْتَبَها … كأنَّ بينهما من رقَّةٍ نَسَبا

فمن جنانٍ تُريك النُّورَ مُبْتسِماً … في غير إبّانهِ والماءَ منسكبا

ومن سواقٍ على خضراءَ تحسَبُها … مخضرَّة البُسْطِ سَلَّو فَوقَّها القُضُبا

وقال:

وبركةٍ ليس يخفي موجُ لُجَّتها … من الق ذى ما طفا فيها وما رَسَبا

ترى الاوزَّ سُروباً في ملاعبها … كما تأملَّتَ في ديباجها لُعَبَا

يرفُّ منه على امواجها زهرٌ … أربى على الزهّر حتى عادَ مكتئبا

وسهمُ فوّارةٍ ما ارتدَّ رائده … حتى أصابَ من العَيُّوق ما طلبا

والقصر يبسِمُ في وجه الضُّحا فترى … وجه الضُّحا عندما أبدى له شَحِبا

يبيتُ أعلاه بالجوزاءِ مُنتطِقاً … ويغتدي برداء الغَيْم مُحْتَجِبا (45)

(45) نفسه، 1/361-364.

وفي مكان آخر يزيد من وصف ارتفاعاتها وتصميمها الذي يجعلها معرضة لضوء الشمس والهواء النقي ووجود الماء الوفير فيها فقال:

قصورٌ حلّقت في الجو حتى   لقَصَّرَت الكواكب عن مداها
مُشرفةٌ كأن بنات نعش   تناجيها إ   ذا خَفَقت شفاها
يتوجها اصفرار الشمس تبرأ   فتمسي وهي م   ذهبة   ذراها
إذا ركد الهواء علت نسيماً   وإن فقد الغمامَ طفت مياها (46)

والى جانب وصفه للمنشآت المعمارية في الموصل والتي تعد جزءاً من خططها، فإنه لم ينسَ وسائط النقل النهري كالسفن والعربات والزوارق التي تسير في نهر دجلة وهي من المظاهر الحضارية مبيناً جمال منظرها، فضلاً عن كونها واسطة سريعة لنقل الأفراد والبضائع وللنزهة ليلاً ونهاراً، وهي تعكس تطور المجتمع آنذاك فقال عنها:

تسحب ال ذ ّيلَ في المسير فتختا   لُ وطوراً تمُرُّ مرَّ السحابِ
وتشُقُ العَبابَ كالحيّةِ السو   داءِ أبقتْ في الرّملِ إثْرَ انسيابِ (47)

ومن مظاهر التطور الاجتماعي والرفاهية في مجتمع الموصل – وجود وسائل الترف والتي يتغنى بها السريّ الرفّاء، وتلك الوسائل لا توجد إلا في مجتمع مستقر يبحث عن النادر من السلع والجميل من الأواني والحاجيات، فمثلاً يتغنى

(46) نفسه، 764/2.
(47) نفسه، 356/1.

بجمال الأقمشة والستائر المنقوشة بالتماثيل وهو معجب بها ويشبه تلك النقوش بصور الربيع الملونة فضلاً عن رسمه صورة متحركة يبين من خلالها الحيوانات المرسومة على تلك الأقمشة فيقول:

وستورٌ كأنهن ربيع شرقُ النور مِنْ حَياً رقراقِ

صًنـَعَتْ فوقها التماثيل أيدٍ عاجزاتٌ عن صنعة الخلاقِ

فإ ذا ما الرياحُ حَرّكن منها خـُيِّلت أن خيلها في استباق

وتراءت أسودها واثباتٍ مبدياتٍ خناجِرَ الأشداقِ

تغتذي بينها الفهودُ على الغز لانِ خـُزْرَ العيونِ سودَ المآقي (48)

ومن وسائل الترف والترفيه وجود البرك والفوّارات التي يتعجب من شدة اندفاع الماء فيها وارتفاعه فيقول:

رفعت إلى الجوزاء فوّاراتها عُمُداً فصابَ بصوبها الجوزاءُ (49)

كما يصوّر الطيور العائمة في تلك البرك والتي تضفي جمالاً على جمالها فقال:

---

(48) نفسه، 2/444-445. الستور: جمع ستر، وهو ما يستتر به ويعد من أمتعة البيت.

الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق، محمود خاطر، مكتبة لبنان، (بيروت: 1995)، 326/1. الفيومي، احمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العلمية، (بيروت: د/ت)، 1/ 266.

(49) ديوان السريّ الرفـّاء، 265/1.

وبركة ليس يخفي موج لجّتِها من الق ذى ما طفا فيها وما رَسبا

ترى الأوزَّ سروباً في ملاعبها كما تأمَّلْتَ في ديباجها لـُعَبَا (50)

وتأسيساً علي ما ورد آنفاً من ذكر بعض مؤشرات مظاهر التطور الاجتماعي في الموصل، فان ذلك كان دليلاً على وجود حياة اجتماعية مرفهة لأغلب سكان الموصل، تلك الحياة التي انعكست بعض صورها في شعر السريّ الرفّاء وهي كثيرة يمكن الإشارة إلى بعض منها:

فمثلاً يحاول أن يصور حياة الناس في فصل الشتاء، لاسيما في الليالي التي تتميز بطولها، والجلوس حول مواقد النار التي تجمع شمل العائلة فقال:

حمراء لم تك ذب ولم تصدق لها لسان قطّ لم ينطق

تزهر في ذي أربع مُقعدٍ كالشمس ِ إ ذ تـُزهر في المشْر قِ

ترى به الجمرَ إ ذا ما صفا يُشر قُ مِثلَ ال ذهبِ المُشر قِ (51)

كما تحدّث عن الأواني التي يحفظ فيها الماء لاسيما في فصل الصيف عندما يوضع في المزملة (صخرة كبيرة مجوفة يوضع فيها الماء لكي يبرد) فقال عنها:

بديعة جسمها زَبَر جَدةٌ خضراءُ تخفي جمالها الحُجُبُ

كأنما الماءُ حينَ تبعَثـُه ذ َوْبَ لـُجَيْن ِ ميزابه ذهبُ (52)

---

(50) نفسه، 363/1.

(51) نفسه، 509/2.

(52) نفسه، 367-366/1.

كذلك يتحدث عن قارورة ماء الورد الذي يستخدم في الحياة اليومية للتطيّب وإذكاء الروائح العطرة فضلاً عن وصفه للأباريق والكؤوس والأقداح(53).

والمجتمع المصلي كسائر المجتمعات العربية الإسلامية يستقبل عيد الفطر المبارك بلهفة وشوق بعد انقضاء شهر الصيام المبارك، لذلك فإن السريّ يحاول أن يظهر ه ذه المناسبة بفرح وانشراح، وهو ب ذلك عن شعور الناس تعبيراً صادقاً فيقول:

ولاح لنا الهلال كشطر Q طوقٍ على لبّاتِ زرقاءِ اللبَّاسِ (54)

وقال:

جاءَكَ شهر السرور Q شوّالُ وغالَ شهرَ الصِّيامِ مُغتالُ

أما رأيتَ الهلالَ يلحُظهُ قومٌ لهُمْ ما رأوُه إهلالُ؟

كأنّه قيدُ فِضةٍ حَر Qجٌ فُضَّ عن الصائمين فاختالوا (55)

ويتمثل التطور الاجتماعي في الموصل في المأكولات سواء كانت مطبوخات أم فواكه أم حلويات، لان تنوع المأكولات والتفنن بصنعها يعكس التطور والاستقرار في المجتمع الموصلي. وقد افرد السريّ الرفّاء قصائد عدة لوصف أنواع المأكولات والفواكه التي كان أهل الموصل يضعونها على موائدهم، فقد

(53) ينظر: نفسه، 376/1، 284، 352، 366، 404، 418 و 209/2، 276، 277.

(54) نفسه، 327/2.

(55) نفسه، 584/2.

وصف اللحوم، كالسمك [56] والدجاج [57]، كما وصف الهريسة [58] والفالوذج[59] كذلك ذكر الخضار والفواكه كالقثاء [60] والعنب [61] والليمون [62] والنارنج [63] والسفرجل[64]، ولم ينسَ في ذلك وصفه لقدر الطعام[65] لكونه الأساس في صناعة الطبخ، وفوق هذا وذاك فإنه يكتب أشعاره عن الثلج [66] الذي يعد ضرورياً في فصل الصيف.

ومن الأمثلة على بعض ما ذكر آنفاً فانه يصف الدجاج وطريقة طبخه وما يضاف له عند الطبخ، وصفاً يعكس التطور الاجتماعي في الموصل فقال:

دجاجة في شبه السَّمَنْدِ تليدةٌ وفخرها بالهِنْدِ

تَفْرُقُ بين ريشها والجِلْدِ وفُصِّلَتْ أعضاؤها من بعدِ

مع لُبِّ اترُجٍّ كلونِ الشَهْدِ بل طَعْمُهُ عن طَعْمِهِ ذو بُعْدِ

(56) ينظر: 274/1، 275، 289، 405 و 87/2، 153، 344، 416.

(57) ينظر: 131/2.

(58) ينظر: 408/1.

(59) ينظر: 502/2 والفالوذج: حلواء تصنع من الدقيق والسمن والماء والعسل. ينظر: إحياء علوم الدين، 370/2، لسان العرب، 1/ 729.

(60) ينظر: 321/2.

(61) ينظر:362/1 و 380/2.

(62) ينظر: 282/2.

(63) ينظر: 16/2، 104، 229، 814.

(64) ينظر: 810/2.

(65) ينظر: 295/1، 420 و 178/2، 654.

(66) نفسه، 432/1 و 183/2، 215، 446، 578، 582، 807.

حتى إ　ذا أسرعا بالوَقـْـدِ　　　صَبَّ عليها اللوزَ مثلَ الز ّبدِ

وغليت بعدُ بماءِ الوردِ　　　ثم أتى يسعى بها كالمُهْدي (67)

وقال في وصفه للقثاء ال ذي يعدّه من الخضار المهمة وهو معروف عند العراقيين بعامة فيقول عنه مشبهاً إياه بالزبرجد والكافور:

وعقفاءُ مثلُ هلال السَّما　　　ولكنها لبستْ سُندُسا

عراقيةٍ لم ي　ذ ُب جسمُها　　　هُزلاً ولم تـَجْسُ فيماجسا

زبرجَدَة ْ حَسُنـَتْ منظراً　　　وكافورةٌ بَرَدَتْ مَلـْمَسا

على رأسها زهرةٌ غضةٌ　　　كنجم الظلام إ　ذا عَسْعَسا

يطول اللسان بإطرائها　　　ويُصبْحُ عن　ذمِّها اخرسا (68)

وهناك ظاهرة أخرى تمثل التطور الاجتماعي ومظاهره في الموصل انعكست في شعر السريّ الرفـّاء، وهي نوعية العلاقة القائمة بين أبناء المجتمع، والتي كانت من الأهمية بمكان ان جعلت السريّ الرفـّاء يدونها في قصائده، وتلك العلاقة كانت قد أخذت أشكالا متنوعة، فمثلاً يصف في قصائده العلاقة التي كانت قائمة بين الأدباء ورجالات الدولة، تلك العلاقة التي توحي بتقرب الشعراء من رجالات الدولة إما لغرض الحصول على المكاسب المادية أو لغرض بيان سلوكيات الممدوح الايجابية وما قدمه لرعيته مبيناً في ذلك شجاعته ومروءته عدله،

(67) نفسه، 2/131-132، والسّمَنـْد: طائر يكثر وجوده في بلاد الهند.

(68) نفسه، 2/321.

وهذه العلاقة بين المادح والممدوح تكون ثابتة في الغالب وتجعل من المادح نديماً وأنيساً لذلك الممدوح، فكان السريّ الرفـّاء يمدح حكام الموصل في عصره ومنهم أبا المظفر بن حمدان ويهنؤه بزواجه فيقول:

سَعْدٌ حُبيتَ به وَجدٌ مُقْبلُ		وسعادة تضفو عليك وتكـْمُلُ
زُفَّ العفافُ إلى العَفافِ ولم يكـُنْ		شرفُ الفضيلة فائِتاً مَنْ يَفضـُلُ
أنت الحيا الجودُ ال		ذي آفاقـُهُ		تـَنـْهَلُّ بالمعروفِ أو تـَتـَهَلـّلُ
عَلِمتْ رَبيعة أنكَ العَلـَمُ ال		ذي		يَهْدي إلى سُنـَنِ النـّدى منْ يَجهَلُ [69]

وقال يمدح سيف الدولة الحمداني ويذكر بعض غزواته:

إذا ابن أبي الهيجاء هِيْجَ تـَجَهَّمَتْ		وجوه المنايا في ظـُبا تـَتـَبسَّمُ
تحامَتْ أعاديه الشـَّام كأنـّما		أحاطتْ بها للطـَّعْنِ نارٌ تـَضـَرَّمُ
وقد اعظـَمتـْه الرُّومُ فاستصْغـَرَتْ به		أكابرَها إنَّ الشـُّجاعَ مُعَظـَّمُ
فحلـّتْ عُرى تيجانِها لِمؤيَّدٍ		يخِرُّ له		ذو التاجِ وهو مُعَمَّمُ [70]

وفضلاً عن العلاقة بين الأدباء ورجالات الدولة، فقد كانت العلاقة قائمة في المجتمع من خلال الودّ والمحبة والألفة والتي أخذت أشكالاً عدة، صَوَّرَ بعضاً منها

(69) نفسه، 609/2.
(70) نفسه، 2/ 625.

السريّ الرفـّاء في شعره، ومن ذلك الدعوات والولائم التي كانت تقام بين العائلات أفرادا وجماعات[71].

وقد شمل التصور الاجتماعي في الموصل النشاط المهني الـ ذي مارسه أهلها، وهذه المهن عكست حيوية ونشاط المجتمع الموصلي حيث أخذت تلك المهن مسالك شتى منها علمية ومنها تخصصية ماهرة، وقد أوضح بعضها السريّ الرفـّاء في قصائده، وكان لكل تخصص ومهنة وحرفة قبول في المجتمع لأنها تسهم في تطوره وازدهاره، فمثلاً يشير إلى العلماء والأدباء بمختلف اختصاصاتهم، في ذكر فضلهم ومكانتهم في المجتمع الموصلي، وقبل ذلك فانه يصف القلم والدواة اللتان تعدان من وسائل طلب العلم حيث يصف القلم وصفاً يحاول من خلاله إبراز أهميته فيقول:

أخرسٌ يُنْبيكَ بإطرقِهِ   عن كلِّ ما شئتَ من الأمر   Q

يُ ذْري على قرطاسه دَمْعةً   تبدي لنا السِّرَّ وما تدري   [72]

وبالمستوى نفسه يصف المحبرة وأهميتها فيقول:

من خالص البَلّور غُيِّرَ لونـَها   فكأنـَّها سَبَجٌ يلوحُ ويَلْمَعُ   [73]

ثم يعرّج على العلماء ومجالسهم وأفضالهم ومكانتهم وأهميتهم، فيقول في قصيدة يدعو صديقاً له إلى مجلس علم، ومن ذلك:

---

(71) نفسه، 825/2، 826.

(72) نفسه، 293/2.

(73) نفسه، 384/2.

فـَزُرْ مجلساً قد فضـّل الله أهلـَهُ   وشـَرَّفهم إن الأديب شريف [74]

ثم يمدح الأطباء ويشبه دورهم في خدمة الناس وشفائهم من الأمراض، بعيسى بن مريم، ومن ذلك ما قاله في طبيب اسمه ابن قرّة الذي عاصر السريّ نفسه:

هل للعليل سوى ابن قرّة شافي   بعد الإله وهل له من كافي؟

أحيا لنا علم الفلاسفة الـ   ذي أودى واوضَحَ نـَهْجَ طِبٍّ عافي

فكأنه عيسى بن مريم ناطقاً   يَهَبُ الحياة بأيسَر Q الأوصاف [75]

وقال يمدح طبيب آخر في الموصل يدعى نعمان ويشيد بدوائه الـ ذي صنعه لمرضاه:

دواء نعمان من أدوائنا شافي   بعد الإله وكاف أيما كافي [76]

جدير بالإشارة أن مهنة الطب في أي مجتمع تزدهر وتصبح سوقها رائجة إذا كان ذلك المجتمع متطوراً ذو عقلية متفتحة لذلك فانه يبتعد عن الطب القائم على الشعوذة والدجل ويتمسك بالطب القائم على أسس علمية فضلا عن ذلك فان المجتمع المتطور يكون أكثر حاجة للعناية بالصحة ومداراتها من المجتمع المتخلف، و ذلك ما نلاحظه في المجتمع الموصلي في القرن الرابع للهجرة مما حدا بالسريّ الرفـّاء أن يرفع من شأن الأطباء في قصائده.

---

(74) نفسه، 414/2.

(75) نفسه، 417/2.

(76) نفسه، 435/2.

ومن المهن الأخرى التي يمكن ملاحظتها في شعر السريّ الرفـّاء هي مهنة الحلاقة التي يصف من خلالها الحلاق بأنه يقدم بمهنته تلك نفعاً كبيراً للناس فقال عنهم:

سيوفكم بحمد الله نفعٌ   إذا كانت سيوف الناس ضراً (77)

وقد وصف ح ذق الحلاقين ومهارتهم من خلال وصفه لأحدهم المدعو عبدالكريم الذي يبدو انه كان حلاقـَهُ الخاص لزمن طويل، فقال عنه:

هل الحِ ذ ْقُ إلا لعبد الكريم   حوى فَضـّلهُ حادثاً عن قديم

إذا لـَمِعَ البرقُ في كفـّه   أفاضَ على الوجه ماءَ النعيمِ

نعمنا بخدمته مُ ذ ْ نشا   فنحنُ به في نعيم مقيم (78)

ولمهنة الحياكة نصيب عند السريّ الرفـّاء، تلك المهنة التي اشتهرت بها الموصل ونسبت إليها الأقمشة التي كان يصنعها الحاكة ومنها (الشاش الموصلي) و (الستور والمسوح) لذلك فإنه يشير إلى ه ذه المهنة وطريقة العمل بها أثناء رثائه لشخص موصلي يسمى علي بن صدقة لنحوي الموصلي الحائك فقال:

ذكرناكَ فانهلـّت مدامعنا تـَتـْرى   مُخـَبِّرَةٌ عن كلِّ ذي كبدٍ حَرَّى

عهِدْتـُكَ مخصوصاً مِنَ البيتِ كـُلـِّه   بمنزلةٍ في الصَّدرِ أنتَ بها أحرى

---

(77) نفسه، 263/2.

(78) نفسه، 2/ 680، 681. وينظر: 778/2.

تـَظـَلُّ بها رجلاكَ في قعْر ٍ وَهْدَةٍ   إذا ما عَلـَتْ إحداهما هَوَتِ الأخرى

وفوقـَكَ صفراوان ِ إن شئـْتَ غنـّتا   ك ذاكرتي فـَرْخـَيْن ِ شـَفـّهما الذ ّكـْرى

وكم أرسلتَ يمنى يَديَكَ رسولـَها   فما لبثته –حين صافحها– اليسرى[79]

ويمكن ملاحظة شكل آخر من أشكال الحياة الاجتماعية في الموصل والتي تعكس التطور في ذلك المجتمع في القرن الرابع للهجرة، و ذلك من خلال ممارسة المجتمع لوسائل اللهو في أوقاته فضلاً عن ممارسة الألعاب والتمتع بجمال الربيع وزهوه، وكل ذلك بصوره السريّ الرفـّاء في قصائد عدة، فمثلاً في أيام الربيع التي تشتهر بها الموصل وما تتمتع به من طبيعة خلابة وجمال مناظرها ينعكس ذلك على الناس لكي يمارسوا فيه نشاطاتهم الفنية مستغلين تلك الأيام في قضاء أجمل الأوقات والتمتع بالزهور والرياحين. وقد وصف ذلك السريّ الرفـّاء فقال مبيناً ربيعها وأيامها ولياليها ودجلتها والتشوق إليها:

ميثاءُ طيبةُ الأنفاس ِ ضاحكةٌ   تكادُ تهتزُّ عُجْباً مِنْ نواحيها

تـَشـُقُّ دِجَّلةٌ أنوارَ الرياض ِ بها   مِثـْلَ الصَّفيحة مصقولاً حواشيها

لا أملِكُ الصَّبرَ عنها إن نـأيْتُ ولوْ   عُوِّضتُ من ظِلـِّها الدّنيا وما فيها[80]

(79) نفسه، 272/2. وينظر: 558/2، 559.

(80) نفسخ، 757/2.

هذا التغني بالموصل وربيعها، جعل من أيامها مواسم وأعياداً، يخرج الناس فيها، وكانت لهم أماكن لقضاء تلك المواسم، كأن يكون الاستمتاع بالهواء الطلق في الأرض الواسعة الخضراء أو أن يكون في الأديرة التي يقضون فيها أجمل أوقاتهم، وقد تغنى السريّ الرفّاء بتلك الأديرة فقال عن دير سعيد:

يا حسن دير سعيد إذْ مررت به   والأرض بالزهر في وشي وديباج
فما ترى غصناً إلا وزهرتهُ   تجلوهُ في جُبَّةٍ منها ودُوّاجِ
وللنسيم على الغدرانِ رفرفةٌ   يزورها فتلقّاه بأمواجِ
يا ديرُ يا ليتَ داري في فنائكَ ذا   أولَيْتَ أنـّكَ لي في درب دُرّاج (81)

وبنفس المعنى يتحدث عن الدير الشرقي وما يحصل فيه من لهوٍ وقضاء وقت:

ويا ديرَها الشرقيَّ لا زالَ رائحٌ   يَحُلُّ عقودَ المُزن فيك ومغْتدي
مواردُ لهوٍ صُفـّقَتْ في ظِلالِها   مواردُ من ماء الكروم المورَّدِ (82)

يصاحب ذلك فعاليات كالرقص والغناء والعزف على العود والناي والضرب على الطبل واصفاً ذلك بقوله:

ومقيّد الطرفين يُضـــــ   ـــرَبُ عند تضييق القُيودِ

(81) نفسه، 24/2. درب درّاج: يقع وسط مدينة الموصل وسكن فيه علماؤها وأدباؤها ومنهم مجد الدين بن الأثير (ت 606هـ)/ ينظر: الديوه جي، سعيد، تاريخ الموصل، مطبوعات المجتمع العلمي العراقي (الموصل: 1982)، 181/1.

(82) نفسه، 138/2.

ولقد يُلـَطـَّمُ خـَدّهُ   في حال ترفيه الخدودِ

وكأنما زأراتـُهُ   يُحْسَبْنَ زَأراتِ الأسودِ

أنظـُر إليه مع المُدا   مِ ترى بُروقاً في رُعُودِ [83]

ومن الفعاليات الاجتماعية والترفيهية في الموصل، لاسيما أيام الربيع، عملية الصيد والطرد بمختلف الوسائل، وقد صور السريّ الرفـّاء جانباً من تلك الفعاليات، فقال يصف كلاب صَيْدٍ، صِـيْدَ بها ضباء:

إذا ما دَعَونا لاحقاً ومُعانِقاً   وَقِيدَ لدينا واثبٌ ومُخالِسُ

فـذلكَ يومٌ جانـَبَ السعْدُ سِرْبَهُ   وقوبـِلَ بالنـّحْسِ الظـّباءُ الكـَوانِسُ

كأنّ جلودَ الوحْشِ بينَ كِلابـِهِ   وقد دَمِيَتْ أجْيادُها والمَعَاطِسُ

مُصَنـْدَلةُ القـُمْصانِ شـَقـّتْ جيوبَها   ورَقـْرقَ فيها الزّعفرانَ العرائِسُ [84]

أما الجانب الآخر لمجتمع الموصل، فكانت الحياة العسكري، تلك الحياة التي عاشها أهل الموصل، فكان الانتماء للجندية من قبل أهلها أمراً له أهمية كبيرة من اجل حماية البلد والدفاع عنه ضد الأعداء، ثم الإسهام مع جيوش المسلمين في الجهاد ضد الطامعين ونشر الإسلام، ل ذلك فإن السريّ الرفـّاء قد وثـّق ذلك من خلال وصفه للجيش ووصف المعركة والقلاع والحصون والأبراج التي أنشئت لحماية ديار المسلمين، ثم يقدم وصفاً للأسلحة كالسيوف والرماح والدروع فضلاً

(83) نفسه، 792/2. وينظر: 377/2، 743.

(84) نفسه، 334/2. وينظر: 430/2، 436، 699، 703.

عن هواية الرمي بالبندق الذي يعد جزءاً من تدريب المقاتلين على دقة التصويب والتسديد، فقال وهو يصف إحدى المعارك التي خاضها ناصر الدولة الحمداني مع الفرس، وهو يقود جند الموصل:

عَلِمَ الأعاجِمُ أن وقْعَ سيوفِكـُم   نارٌ تـُشـَبُّ وانتـُم إعصارُها

من   ذا ينازعُكـُم كريماتِ العُلا   وهي البُروجُ وأنتـُمْ أقـْمارُها

الحَرْبُ تـَعْـلـَمُ أنـّكـُمْ آسادها   والأرضُ تشهدُ أنكم أمطارُها

هي وقعةٌ لـَكَ عِزُّها وسَنـَاؤها   وعلى عَدُوِّكَ عارُها وشنارُها (85)

وقال يصف القلاع والأبراج:

كأنَّ أبراجَهُ من كلِّ ناحيةٍ   أبراجُها والدُجى وحْفٌ غياهِبُهُ (86)

وفي وصفه للأسنة والسيوف والروع في المعارك يقول:

ومعركةٍ يسوّدُ للنـّقع اُفقها   وتحمَرُّ من فيض ِ الدّماء ربوعُها

إذا ازدَحَمَت فيها السيوفُ حسِبْتـَها   ينابيعَ ماءٍ ضاقَ عنها وَسِيعُها (87)

---

(85) نفسه، 193/2، 194.

(86) نفسه، 377/1، وحْفٌ: كثير.

(87) نفسه، 373/2.

أما القوس والبندق فلهما أهمية في مجتمع الموصل، وقد بيّن ذلك السريّ الرفـّاء في قصائد عدة، فقال يصف المصائد والمطارد في القوس والبندق.

منسوبةٌ إلى الرّماحِ ال ذ ّ ُبَّلِ قد صُبِغت صِبْغَ الحريقِ المُشْعَلِ

يَنبزُها الرّامونَ زادَ المُرمِلِ وصائباتٍ لمْ تَحِدْ عن مقْتَلِ [88]

وأخيراً لابد من القول أن السريّ الرفـّاء استطاع ان يصور في ديوانه الكثير من الجوانب الاجتماعية لمجتمع الموصل في حقبة من حقبه الزمنية، ولم يكن ذلك ليتحقق لولا انه كانت تتوفر في مجتمع الموصل آن ذاك المقومات الأساسية التي تجعله رائداً بين المجتمعات في المدن الأخرى المعاصرة مما حدا بالسريّ أن يجعل من ذلك المجتمع مادة لشعره وب ذلك كان ديوانه صورة صادقة عكست تطور المجتمع الموصلي.

---

(88) نفسه، 543/2. ينظر: 242/2.

الخاتمة

تبين من خلال دراسة ديوان السريّ الرفـّاء جملة أمور:

- انه كان كثير التنقل والترحال بين الموصل وحلب وبغداد.
- كان قد لحقه حسد من شعراء عصره أمثال الخالديين مما اثر سلباً على حياته ومعيشته.
- لم يترك جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية في الموصل إلا تعرَض له في قصائده.
- مدح حكام الموصل والأسر العريقة فيها.
- تحدث عن بعض مظاهر التطور الاجتماعي في الموصل كالحمامات والقصور والدواليب والنواعير والسفن والعربات والزوارق فضلاً عن وصفه للفوّارات والتي تعّد انعكاساً لتطور المجتمع.
- حاول السريّ الرفـّاء أن يصّور في شعره جوانب من الحياة الاجتماعية في الموصل كتصويره حياة الناس وهي تجتمع حول مواقد النار في الشتاء، أو وصفه لاستقبال العيد بعد انقضاء شهر رمضان فضلاً عن وصفه للمأكولات والمشروبات التي كانت سائدة في الموصل آنذاك.
- تطرق في شعره إلى المهن المهمة ولاسيما صنعة العلم والمعرفة.
- وصف فعاليات أهل الموصل أيام الربيع.
- وصف الجيوش والأسلحة والقلاع والأبراج والمعارك التي خاضها حكام الموصل دفاعاً عن الإسلام.

Abstract

Mosul Society in the 4th Century A.H./10th A.D. in the Poetry of Al-Serry Al-Raffā'

Dr. Abd Al-Jabbar Hamed [(*)]

The paper aims at studying the poetry of Al-Serry Al-Raffa' as a study of Mosul nature and beauty and its impact on society. It also studies the Arabic tribes who lived in Mosul and to show their occupations at that time. In addition to this, it tries to shed light on their foods and drinks. It oive a description of their social development as places, baths, waterwheels and then to mention their wars, army and weapons.

Al-Serry Al-Raffa'' is Abu Hassan Al-Kindi Al-Raffa' Al-Mosully. He is one pf Mosul poets in 4A..H./10AD. He used to mend clothes and embroider them. He praised Mosul kings like Nasir Al-Dawla Al-Hamdani and later Saif Al-Dawla Al-Hamdani in Aleppo. He died in (362A..H. /972A .D.).

(*) Department of History - College of Arts / University of Mosul.